بسم الله الرحمن الرحيم

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْمُسْلِمَ يَعِيشُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ جَاعِلًا تَقْوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مَنْهَجَ حَيَاتِهِ، فِي يَقَظَتِهِ وَفِي مَنَامِهِ، فِي بَيْتِهِ وَفِي عَمَلِهِ، وَفِي شَارِعِهِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ. لَقَدْ غَدَتْ سِمَةً وَعَلَامَةً مِنْ عَلَامَاتِ حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ، فَهُوَ دَائِمًا إِيجَابِيٌّ، لَيْسَ مُتَثَاقِلًا وَلَا مُتَكَاسِلًا، بَلْ يَكُونُ مُسْتَعِينًا بِاللهِ ﷻ فِي مُوَاجَهَةِ الْفِتَنِ الَّتِي تُوَاجِهُهُ فِي حَيَاتِهِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ نَمَاذِجَ مِنَ الْإِيجَابِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ مَرْيَمَ. فَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ لِمَرْيَمَ وَهِيَ فِي مَخَاضِهَا: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وَمَا عَسَىٰ قُوَّةُ مَرْيَمَ الْخَائِرَةُ بَعْدَ وَضْعِ وَلَدِهَا أَنْ تَهُزَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ الْعَاتِيَةَ، شَجَرَةَ النَّخْلِ؛ لِتُسَاقِطَ عَلَيْهَا ثِمَارَهَا، لَكِنَّهُ الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ وَالْإِيجَابِيَّةِ الَّتِي يُغَيِّرُ بِهَا الْحَالُ.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدِ امْتَلَأَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِنَمَاذِجِ الْإِيجَابِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

الْأَوَّلُ: نَمْلَةُ سُلَيْمَانَ عليه السلام الَّتِي نَصَحَتْ لِبَنِي جِنْسِهَا؛ فَكَانَتْ سَبَبًا فِي نَجَاتِهِمْ. قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ**﴾ مُنَبِّهَةً لِرُفْقَتِهَا وَبَنِي جِنْسِهَا: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ فَنَصَحَتْ هَذِهِ النَّمْلَةُ ... وَعَرَفَتْ حَالَةَ سُلَيْمَانَ وَجُنُودِهِ، وَعَظَمَةَ سُلْطَانِهِ، وَاعْتَذَرَتْ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ حَطَّمُوكُمْ فَلَيْسَ عَنْ قَصْدٍ مِنْهُمْ وَلَا شُعُورٍ، فَسَمِعَ سُلَيْمَانُ عليه السلام قَوْلَهَا وَفَهِمَهُ، ﴿**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا**﴾؛ إِعْجَابًا مِنْهُ بِفَصَاحَتِهَا وَنُصْحِهَا، وَحُسْنِ تَعْبِيرِهَا. وَهَذَا حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَدَبُ الْكَامِلُ، وَالتَّعَجُّبُ فِي مَوْضِعِهِ، وَأَنْ لَا يَبْلُغَ بِهِمُ الضَّحِكُ إِلَّا إِلَىٰ التَّبَسُّمِ، كَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمَ، فَإِنَّ الْقَهْقَهَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ خِفَّةِ الْعَقْلِ وَسُوءِ الْأَدَبِ، وَعَدَمَ التَّبَسُّمِ وَالْعَجَبِ مِمَّا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ يَدُلُّ

عَلَىٰ شَرَاسَةِ الْخُلُقِ وَالْجَبَرُوتِ، وَالرُّسُلُ مُنَزَّهُونَ عَنْ ذَلِكَ.

الثَّانِي: مِنْ نَمَاذِجِ الْإِيجَابِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُدْهُدُ سُلَيْمَانَ عليه السلام. ذَاكَ الطَّائِرُ الصَّغِيرُ فِي حَجْمِهِ، الْكَبِيرُ فِي هِمَّتِهِ، الْعَظِيمُ فِي تَفْكِيرِهِ، ذَاكَ الطَّائِرُ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي دُخُولِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ الْإِسْلَامَ؛ حَيْثُ نَقَلَ لِسُلَيْمَانَ عليه السلام خَبَرَ مَلِكَةِ سَبَأٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَىٰ الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ... قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: الْإِيجَابِيَّةُ تَعْنِي أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ فَيْضًا مِنَ الْعَطَاءِ، قَوِيًّا فِي الْبِنَاءِ، ثَابِتًا حِينَ تَدْلَهِمُّ الْخُطُوبُ، لَا يَيْأَسُ حِينَ يَقْنَطُ النَّاسُ، وَلَا يَتَرَاخَىٰ عَنِ الْعَمَلِ حِينَ يَفْتُرُ الْعَامِلُونَ، مُتَفَائِلٌ فِي حَيَاتِهِ، شَاكِرٌ فِي نَعْمَائِهِ، صَابِرٌ فِي ضَرَّائِهِ، قَانِعٌ بِعَطَاءِ رَبِّهِ لَهُ، مُؤْمِنٌ بِأَنَّ لِهَذَا الْكَوْنِ إِلَهًا قَدَّرَ مَقَادِيرَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْإِيجَابِيُّ يَتَعَامَلُ مَعَ الْأَحْدَاثِ وَالْمَوَاقِفِ بِحَذَرٍ، فَهُوَ لَا يَتَعَجَّلُ الْأَحْكَامَ، بَلْ يَتَأَنَّىٰ فِي حِلْمٍ وَأَنَاةٍ، وَلَا يَتَقَدَّمُ بَيْنَ يَدَيِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ قَوْلِهِمْ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وَالْإِيجَابِيُّ فِي زَمَانِ الْفِتَنِ يُمْسِكُ زِمَامَ نَفْسِهِ، وَيُلْجِمُ لِسَانَهُ عَنِ الْإِشَاعَةِ، وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ. أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رحمه الله، عَنْ وَابِصَةَ الْأَسَدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: إِنِّي

بِالْكُوفَةِ فِي دَارِي، إِذْ سَمِعْتُ عَلَىٰ بَابِ الدَّارِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَلِجُ؟ قُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّلَامُ فَلِجْ، فَلَمَّا دَخَلَ، فَإِذَا هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَيَّةُ سَاعَةِ زِيَارَةٍ هَذِهِ؟ وَذَلِكَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ [قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «النِّهَايَةِ»: هُوَ حِينَ تَبْلُغُ الشَّمْسُ مُنْتَهَاهَا مِنَ الِارْتِفَاعِ، كَأَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَىٰ النَّحْرِ، وَهُوَ أَعْلَىٰ الصَّدْرِ]، قَالَ: طَالَ عَلَيَّ النَّهَارُ، فَذَكَرْتُ مَنْ أَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ، قَالَ: فَجَعَلَ يُحَدِّثُنِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأُحَدِّثُهُ، قَالَ: ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنِي، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تَكُونُ فِتْنَةٌ، النَّائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمُضْطَجِعِ، وَالْمُضْطَجِعُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَاعِدِ، وَالْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ الرَّاكِبِ، وَالرَّاكِبُ خَيْرٌ مِنَ الْمُجْرِي، قَتْلَاهَا كُلُّهَا فِي النَّارِ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَتَىٰ ذَلِكَ؟، قَالَ: «ذَلِكَ أَيَّامَ الْهَرْجِ»، قُلْتُ: وَمَتَىٰ أَيَّامُ الْهَرْجِ؟ قَالَ: «حِينَ لَا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ»، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «اكْفُفْ نَفْسَكَ وَيَدَكَ، وَادْخُلْ دَارَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَيَّ دَارِي؟ قَالَ: «فَادْخُلْ بَيْتَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي؟ قَالَ: «فَادْخُلْ مَسْجِدَكَ، وَاصْنَعْ هَكَذَا - وَقَبَضَ بِيَمِينِهِ عَلَىٰ الْكُوعِ - وَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ، حَتَّىٰ تَمُوتَ عَلَىٰ ذَلِكَ»، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ: قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ الزَّمَانُ؟ قَالَ: «تَكُفُّ لِسَانَكَ وَيَدَكَ، وَتَكُونُ حِلْسًا مِنْ أَحْلَاسِ بَيْتِكَ»، فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ طَارَ قَلْبِي مَطَارَهُ، فَرَكِبْتُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ دِمَشْقَ، فَلَقِيتُ خُرَيْمَ بْنَ فَاتِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَحَدَّثْتُهُ، فَحَلَفَ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَسَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا حَدَّثَنِيهِ ابْنُ مَسْعُودٍ.

عِبَادَ اللهِ: مَنْ يَتَأَمَّلُ سِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ يُلَاحِظُ إِيجَابِيَّتَهُ الْعَظِيمَةَ تُجَاهَ الْآخَرِينَ، وَعَدَمَ السَّلْبِيَّةِ فِي جَمِيعِ مَوَاقِفِهِ، حَتَّىٰ مَعَ الْكُفَّارِ. فَإِنَّهُ كَانَ يَرْجُو لَهُمُ الْإِسْلَامَ وَالْخَيْرَ، فَهَا هُوَ يَعُودُ غُلَامًا يَهُودِيًّا وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ طَمَعًا فِي إِسْلَامِهِ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَىٰ أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ

لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».

وَهَا هُوَ يَدْعُو لِأُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ بِالْهِدَايَةِ مَعَ سَبِّهَا لَهُ ﷺ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا، فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ». فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ، وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا، وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبْشِرْ، قَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ خَيْرًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ رَبَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِيلًا فَرِيدًا فِي الْإِيجَابِيَّةِ وَعَدَمِ السَّلْبِيَّةِ تُجَاهَ الْآخَرِينَ، حَتَّى لَوْ كَانَ الثَّمَنُ هُوَ الْحَيَاةَ، أَخْرَجَ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الزُّهْدِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»، عَنْ أَبِي جَهْمِ ابْنِ حُذَيْفَةَ الْعَدَوِيِّ قَالَ: «انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِّي، وَمَعِي شَنَّةٌ مِنْ مَاءٍ، أَوْ إِنَاءٌ، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ بِهِ رَمَقٌ سَقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ، وَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهَهُ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يَنْشَعُ، فَقُلْتُ: أَسْقِيكَ؟ فَأَشَارَ: أَيْ نَعَمْ، فَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: آهٍ، فَأَشَارَ ابْنُ عَمِي أَنْ أَنْطَلِقَ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ أَخُو عَمْرٍو، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَسْقِيكَ؟ فَسَمِعَ آخَرَ فَقَالَ: آهٍ، فَأَشَارَ هِشَامٌ: أَنْ أَنْطَلِقَ بِهِ إِلَيْهِ، فَجِئْتُهُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، فَرَجَعْتُ إِلَى هِشَامٍ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، فَرَجَعْتُ إِلَى ابْنِ عَمِي فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ». فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْإِيجَابِيَّةِ؟.

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا ... وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ